

جناية الآباء

نُرافع المحامي عن المتهم بما أوتى من فصاحة لسان وقوة برهان وخلت المحكمة للدأولة ثم خرجت من غرفة المشورة وأعلنت حكمها القاضي بإحالة الأوراق إلى مفتي الديار. ومعنى ذلك كما لا يخفى الحكم على المتهم بالأعدام فضج الحاضرون وقد أخذتهم نشوة الطرب. كأن غريزة المرء الحيوانية الكامنة تحت ستار المدنية الرقيق لا يلذ لها غير القتل وسفك الدماء. ولا يثير شعورها إلا المظالم والمغارم التي ينزلها الإنسان بأخيه الإنسان. وخرج الجند بالمحكوم عليه وهو أصفر الوجه جاحظ العينين ينظر ولا يرى ويتطلع ولا يبصر. وكان يسير مدفوعاً بغلظه الحراس وفضاضتهم. فهذا يدفعه وذاك يلكمه. وآخر يحجره وغيره يلكره. وهو مستسلم لهم لا يدي مدافعة أو ممانعة كأنه قد فقد الحس والشعور. والناس يتبعون عنه ويفرون من طريقه كأنه وحش ضار يخشون على أنفسهم منه.

وكان المتهم في ربيع الحياة وميعة العمر. طويل القامة نحيل الجسم وسيم المحيا لولا ما انطبع عليه من مقت وكره للإنسانية التي نبذته وآذته. مما جعل أسارىه جامدة يابسة لا تتم عن عطف ولا تشف عن حنان. فوقف على باب المحكمة الخارجي وقد أنعشته نسائم الشتاء الباردة فاستنشق الهواء بملء رئتيه وتطلع فيما حوله على يرى نظراً حبيماً أو بصراً شقيقاً يخنو عليه ويعطف. فلم يبصر غير عيون تحديق فيه بحق وذعر. فرفع بصره إلى السماء كأنه يستشهد الله المطلع على دقائق القلوب وخفايا الصدور. ثم نظر أمامه وما لبث أن عرته رعشة شديدة اهتز لها كل جسمه. ووقف برهة محلق العينين يتطلع إلى صبية أمامه يتراوح سنهم بين الخامسة والتاسعة وهم يتزاحمون حول صندوق القازورات والنفايات ويتدافعون لالتقاط ما يجدونه فيه من قشرة برتقال أو عظمة عليها مسحة من اللحم أو كسرة خبز غلتها الأوساخ والأدران ويلقمونها بشراهة ويلو كونها بشبهة ويزردونها بلذة وارتياح

كانهم يأكلون أطيب الطعام ويتذوقون لذيد الماء كل وشهيا
وكانوا يزاحمون الحرارة والكلاب ويسلبونها ما عثرت عليه من نفايات
الماء كالأكل وهم يصخبون ويضحكون رغم ما بهم من جوع ومسغبة. وما هم فيه من
ضنك وبؤس.

وكانوا عراة الرءوس حفاة الأقدام لا يستر أجسامهم من قر الشتاء وبرده
غير ثياب ممزقة بالية تكاد لا تكفي لمداواة عوراتهم. وكانت وجوههم ذابلة
ليس فيها أثر من نضارة الطفولة. يعلوها شحوب واصفرار ويتخللها أخايد
من القذارة والوساخة. وأعينهم مظفأة البصيص لانتم عن ذكاء ولا فهم
كانها أعين حيوانات دنية، وأجسامهم نضيضة اللحم لم يبق الطوى منها غير
جلد على عظم.

وقف المحكوم عليه يتأمل هذا المنظر المتجلى أمامه وهو شارد الفكر
ذاهل العقل حتى أخرجه من سباته لكمة شديدة من يد جندي وقعت على
م رأسه فلم يبال بها لاعتياده على مثل هذه المعاملة من جميع حراسه. بل رفع
يديه المصفدين ومسح بظهر كفه دمعة تفرقت في عينه ثم لوى بصره عن
الصبيان وسار متبوعا بالجنود وسائر المحبوسين.

وكان إلى جانبه سجين قد تمرست نفسه بالأجرام وارتاضت على أنواع
المنكر وضروب الآثام، حتى صلدت عواطفه وتحجرت مشاعره فاندمل عند
مآرآه يبكي وظن أن دمه ينساب حزنا على غصن حياته الذي سيصهر يافعا.
فهمس في أذنه مشجعا إياه: « جمد قلبك يا محمد. السجن مأوى الرجال.
والمشنقة مرجحة الإبطال ». فاجابه المحكوم عليه بالاعدام وقد خنق التأثر
صوته: « سيان عندي حياتي أو مماتي. فقد أشجنتني ذكري مرت بخاطري
فاعادت إلى ذهني أيام طفولتي بمرارتها وعلقمها. وسأقص عليك ما كابדתه في
حياتي القصيرة من التعس والشقاء عند ما نركب العربة التي ستقلنا إلى السجن.
لتعيه من بعدي وتسرده للناس فيكون شهادة "طلقة بجناية الوالدين وظلم
الإنسانية».

ولما أخذ السجناء أمكنتهم في عربة السجن لبث محمد برهة مستغرقاً في أفكاره يجمع شتيتها ثم زفر زفرة خرجت من أعماق قلبه واستتلى حديثه قائلاً: ما أتعس الطفل الذي يشب بعيداً عن حنو أمه وعطف أبيه . وما أشقاء إذا أسلته المقادير الى ايدي ظلمة عتاة يسومونه الذل ويحملونه الهوان ويرهقونه بالمظالم والمغارم وهو لم يزل بعد لدن العود رطبه لا يقوى على احتمال ما يثقل كاهله من جور بنوء تحتته أشد الرجال وأقواهم .

فقد شاءت صروف الدهر ان لا يعي ذهني حالما بدأ بالشعور إلا التعاسة والشقاء . ففتحت عيني في هذا الوجود وأنا لم أستكمل الخامسة من عمري فلم أر لوالدي أثراً . بل وجدت نفسي عند امرأة شرسة الطباع شكسة الخلق . لا قلب لها يرق ولا فؤاد يرحم . فقد طلق أبي أمي وهي حامل بي وذهب الى حيث لا يدرى أحد مكانه . ولم يكد ناظري يكتحل بنور هذه الحياة حتى تزوجت والدتي بغيره . فكنت حجر عثرة في سبيل هئائها . لان زوجها لم يكن يطبق رؤيى فكان يسيء الى ويضربني . وأمي تدافع عني جهد طاقتها حتى خيرها بين تركها لي أو تركه لها . ففضلت الانفصال عني وسلمتني الى هذه المرأة العجوز لتقوم بتربيته لقاء أجرة معينة تأخذها شهرياً . وأنا لم أزل بعد في الثانية من عمري . وما هي إلا شهور قلائل حتى غابت أمي عن نظري وتركتني بين يدي هذه العجوز التي لما رأت انقطاع الاجرة عنها طفقت تعاملني اسوأ معاملة وتضربني ضرباً اليماً ولا تطعمني في البار كله الا كسرة خبز يابسة تكاد لا تكفي للبقاء على . ولا تكسوني الا بقطع عتيقة من بقايا ثيابها الخلقة . تافتها كيفما اتفق وتحلبها على جسمي الهزيل . فكانت لا تمنع عريبي ولا تستر عورتني . ولا تقيني حارة الصيف ولا صبرة الشتاء .

ولما قوى ساقي على حملي علمتني التسول وجمع اعقاب السجائر وبيعها . ودربتني على نشل ما تقع عليه يدي . وكانت تسرحني صباحاً مشبعة اياي بالضرب وطالبة مني ان أعود اليها مساء ويدي لا اقل من ربع ريال . والويل لي اذا رجعت ولم استم هذا المبلغ . فاقبل ما يصيني منها الضرب بالعصا على جسمي الضعيف العاري حتى تخد فيه آثاراً دامية . فيغمي على من الالم فتلقيني

في اكن غرفتها السوداء بعد ما تأخذ من النقود التي جمعها وتجلس على فراشها ويدها العصا تتطلع الى كما يتطلع الوحش الضاري الى فريسته المضرجة بالدماء معتزمة معاودة الكرة اذا افقت من غيوتي .

فكنت البث الساعات وانا في غشيتي حتى اذا عاد الى صوابي اتطلع اليها بطرف خفي فاذا رأيته تترقبني ظلمت في مكاني لا تحرك حتى يغلب على النعاس والتعب والالم فانام متوسدا الارض الرطبة نوما متقطعا يتخلله الفزع والهلع والهواجس والوساوس .

وعندما يتنفس الفجر توقظني بالرفس واللكم . وتلقى الى بكسرة الخبز كما تلقى الى الكلب وتشيعني بالتهديد والوعيد فاسير لمزاولة عملي وأنا في حالة يتقطع لها القلب من الضعف والهزال والجوع والعري . حتى اذا كان ذات يوم وقد خرجت عند زر السحر اطلب ما أسدبه جشمها دفعا لأذاها ، متأبطاً قطعة الخبز اليابسة ومترملاً ببقايا ثياب لم تترك الايام منها غير مزق تتدلى على جسدي فيبدو منها صدري الهزيل الذي تعد أضلاعه عدداً . ويظهر من تحها ذراعي الرفيعان الملتصق جلدهما بعظمهما . وساقاي الدقيقان اللذان يحملاني مترنحين . مررت بقصر منيف تحيط به حديقة غناء . في مدخلها قبالة السلم الرخامي كشك صغير من الخشب فيه كلب ضخمة هائل المنظر مربوط بجنزير وقد انحدر عبد اسود حاملاً طبقاً فيه لبن مغلي يتصاعد منه البخار . فوضعه امامه وقفل راجعاً . فغمس الكلب فيه منخره وربض مكانه .

وكان الوقت شتاء والطقس بارداً زمهريراً يقضض من قره الجسم المندثر بالفراء وثير الثياب فكيف بالعارى مثل جسمي الذي لا يستتره غير أطمار بالية . فتطلعت إلى طبق اللبن وقد جحظت عيناي واندلع لساني وجرى لعابي في فمي رغماً عن يبس حلقي الذي لم يذق في حياته ثلبن طعماً . فطاش عقلي وفقدت وعيي وانسلت من باب الحديقة المفتوح واسرعت الى الطبق فهجم على الكلب الكاسر وانشب انيا به في كتفي العاري . فلم اعبأ بالالم من فرط الجوع والبرد وجثوت على ركبتي ورفعت الصحن الى فمي وتجرعت منه جرعات كبيرة رغماً عن سخوته . فلما رأى الكلب لهفتي وجوعي

فطن بغريزته الحيوانية الى حالتي البائسة فتخللت الرحمة قلبه وارثد عني وألقى على ذنبه وأخذ يصبص لي به ويتطلع إلى بعطف وحنان بعينه الصغيرتين المملوءتين ذكاء . كأنه يقول لي : اشرب لاخوف عليك فانت أحوج من سواك إلى مايدفوك ويقوتك .

وكانني بالحيوان الاعجم أرق قلبا من الانسان . فبينما أنا مقبل بكلتي على اللبن أتجرعه بشراهة لا أدفع به عن جسمي البرد الذي كان يهرؤه سمعت من ورائي صوتاً يصيح « أهيا اللص » وشعرت بضربة سوط شديدة وقعت على أم رأسي فاندلق اللبن من يدي وسقطت على الارض وأنا اتلوى من شدة الالم والدم يتدفق بغزارة من جرحي .

وكان الضارب شابا في ريعان العمر ومقبل الحياة . انيق الملبس يتدثر بمعطف ثمين تحته بزة افرنكية من غالى النسيج وفي يده قفاز من الجلد . وقد قبض على سوط مدبب الرأس . فانحنى فوقى وصاح بي « أتسرق أيها الوغد وأنت في هذه السن ؟ وهم بضربتي ثانية . لكن الكلب الذي أنف من هذا الظلم هراً هراً قوياً وهجم على صاحبه مكشرا عن أنيابه وحال بيني وبينه . فصاح الشاب مغضباً : وحقك يا بوبي أتهر على ؟ لكن الكلب لم يبال به بل مال على وأخذ يلحس جرحي كأنه يؤاسيني مستغفرا عن الجور الذي ألحقه بي سيده . فنادى الشاب خدمه فلبوه افواجاً . فامرهم بطرحي خارجاً فحملوني من يدي ورجلي والقوني في الشارع وأغلقوا الباب . فلزمت مكاني دون أن أجد في نفسي قوة على مبارحته . وكان الزيف قد انقطع لكن ألم الجرح مازال شديدا فاستندت رأسي إلى جدار الحديقة وأغمضت عيني ملتصقاً الراحة بما أعانيه .

وكانت الشمس قد بدأت تشرق وأشعتها الشاحبة تنسل من بين السحب الغائمة المغطية وجه السماء فشعرت بدفء خفيف تحت لعابها واستسلمت للكرى . وما لبثت إلا برهة حتى أيقظتني من سباتي رفسة عيفة من حذاء ثقيل اهترلها كل جسمي . فافقت مذعورا فالفيت عسكري الدورية واقفاً ينتهزني بالسباب والشتم طالبا مني السير . فصعدت للامر ونهضت متحاملا على نفسي ومشييت مترنحا وأنا أعتمد الجدران بيدي لكي لا أهوى إلى الارض فحررت بصيدلية

القس من صاحبها الاعتناء بجرحي الذي كان يؤلمني أشد الألم فانتهرني وطردي
فعاودت سيرى وأنا أدلف وقد حبست نفسي عن الجزع لاستمد من عزيمتي
قوة تساعدني على السير حتى أصل إلى مكان قفر آوى إليه . فابصرت على مدى
قريب منزلاً متهدماً قد زال سقفه وبقيت جدرانه . فهرولت إليه بقدر ما تسمح
إلي به حالي . وانسللت بين أطلاله حتى أصبت ركناً قد انارت به أشعة الشمس
الشاحبة . فسكنت إليه وتمددت على أرضه وأنا أتدخل في بعضى والتف بأطماري
طلباً للدفء . وما ليث الكرى ان ران على أجفاني فاستسلمت إلى النوم لعل أجد
فيه مخففاً لآلامي وأوصابي .

وما هو الا زمن وجيز حتى افقت مذعوراً على تساقط المطر . فوجدت السماء
قد اعتكر لونها وفاضت ميازيها . فنهضت وقد ابتلت اطماري والتصقت بجسمي .
فاسرعت في السير وأنا أشد في عدوى باحثاً عن ملجأ يقيني عادية الماء الذي
كان ينهمر فوقى بغزارة . فالتجأت إلى طنف يبرز من عمارة فاستترت به من
وابل المطر . ولبثت أرقب المارة وأنا شار دالفكر مضطجع الحواس حتى انقطعت
خيوط الغيث وانقضت الغيوم وبدت الشمس يباهيها فازدحمت الشوارع
بالسابلة ومعظمهم من الصبيان وهم يسرون أفواجا فواجا حاملين اللعب المختلفة
يتلاهمون بها . وقد أسبغوا على أجسادهم حلالاً جديدة زاهية الألوان . وركب
بعضهم العربات والسيارات وهم يغنون ويصفقون . فسألت صبياً يماثلني
حالة عن خطب هؤلاء فاجابني بانهم يحتفلون بعيد الفطر .

ومرني فوج منهم يا كلون الحلوي والكعك فمددت يدي إليهم مستجدياً
لان الجوع أخذ يقرس معدتي فكنت أسكن أنفها بضغط يدي . ففرسوا في
وجهي الشاحب النحيل وقد رسمت فيه الاقذار والدماء اخاديد . وتأملوا في
عيني اللتان تشعان ببريق الحمى . وتطلعوا إلى ثيابي المزق المبللة الملتصقة بجسمي
دون أن تستر عورتى . ثم نظروا إلى بعضهم هلعين وجلين وأطلقوا سيقانهم
للريح كأنهم سرب غزلان تفر من وحش مفترس . فرفعت بصري إلى السماء
دون أن أدرك بعد أن هنالك إلهاً مهيمناً على العالم وانزلته إلى الارض وأنا أشعر
باجحاف وظلم لا أحيط بأسبابهما . لكن احساسى الذي تنبه في قبل أو انه اظهر في

على الضيم الذى نالنى والجور الذى حاق بى . فسألت نفسى لماذا يوجد صيان
فى رخاء العيش وليانه . يسارع اليهم الهناء وتكلامهم السعادة بعنايتهم وتواضعهم
الدنيا على رغائهم . واخرون فى سنهم وقد تنكرت لهم الحياة . وتجههم لهم وجه
الزمن فذاقوا من شقاء العيش ومرارة الوجود ما يكاد يدك صرح هيا كلهم
ويودى بحياتهم الغضة اليافعة ؟..

.. سؤال جهدت نفسى فى ادراك كنهه فتضائل دونه عقلى الصغير القاصر ..
وكانت شوكة الجوع يشتدو خزها . وأنا أدافعها بالتألمى فى تصفح الوجوه
واجالة الطرف فيما حوالى فابصرت باءائى حانة جلس فيها أناس من عليه القوم
الى موائد عليها كؤوس الخمر وأصناف المأكول يتنقلون به على الشراب .
فزادت هذه الرؤية نار الطوى استعار آفى جوفى . فتفقدت جيبى مراراً على أجديه
فتأتاً من كسرة الخبز التى أضعها فى الحديقة تجاه عرين الكلب . لكننى لم أظفر
بفتية واحدة لان جيبى كان مخزاً كالمصفاة . لا يستقر فيه شيء . فصحت عزيمتى
على التسلل الى الحانة عساي أصيب ما أمسك به رمقى . فسرت منزحاً كالشارب
لئلم . وتنقلت بين الموائد متطلعاً بشراهة الى ما استبقاه المحتسون فى الطباق من المأكول
حتى اذا انتهيت الى مائدة قد نفذ شرايبها وفرغ الجالسون من أمرها وهما
بالانصراف . مددت يدي المرتجفة الى مارسب فى الصحون واسرعت الى فمى بما وصلت
اليه . وأنا أزدرد دون مضغ . فانها لعل على الشاربون سباً وشماً وضرباً ولكمأنا غير
مبال بالآلم الوجيع . بل منصرف بكلى الى إلتقام ما تصيبه يدي حتى أقبل
خدم الحانة فأخرجونى وهم يضربونى ، فما كدت اسير خطوات قليلة حتى
اعترانى دوار شديد فلمست طريقى متحاملاً نفسى وسقطت فى منعطف
زقاق مغشياً على

مكثت على تلك الحالة برهة من الزمن لا أدرى مداها حتى أقفت مذعوراً
على أصوات تنادىنى وأيد تحر كنى . فظننت لأول وهلة ان العجز توقظى
كعادتها فنهضت مسرعاً خشية أن ينالنى أذاها إذا تباطأت . فشعرت
بالآلام تقعدنى عن القيام . فتفرست فى الوجوه المكددة بى وأنا خائف وجل
فوجدتها وجوه صيان من صنوى وشا كلى . فثيابهم رثة بالية وسحنهم

غبراء شاحبة . وأعمارهم ما بين الخامسة والعاشرة . وهم مقبلون على بوجوههم
فرحون ببقياى مستبشرون بما سيخصونى به أنا البائس المسكين مثلهم .
إذ لا يعرف الفقر الا من ذاق جوفه ألم الجوع . وجسمه معرة العرى .
وحياؤه مذلة السؤال . فجلسوا حياى عند ما بدا لهم يجزى عن النهوض .
واستظلعونى أمرى . فقصصت عليهم تاريخ حياتى المقعم بالحوادث المؤلمة
وهم مصغون إلى سامعون منى حتى استفرغت ما عندى فثرثوا لحالى المائل حالهم
وطيدوا خاطرى وناولنى أحدهم برتقالة أكلتها بقشرها من فرط جوعى . وأرونى
نقودا فضية وفيرة فى جيب أكبرهم سناً وأكلاً شهياً ملفوفاً بورق . ثم
حملونى إلى الصيدلية التى قصدتها صباحاً فطرطنى صاحبها فأعطوه ربع ريال
وطلبوا منه تنبيهى وضمد جروحى فلبى الامر هاشأ باشأ وأنعشنى بكأس
من الكونياك ممزوج بأدوية أخرى . وغسل إصاباتى وضمدها فانتعشت
نفسى . وردت إلى روحى . وقويت رجلاى على حملى . فسرت مع رفاقى الذين
عزموا على إحياء العيد أسوة بأسرة الاطفال المترفين . فلئن أبت عليهم الانسانية
طوعاً أن تدخل السرور على قلوبهم فى ذلك اليوم . فقد أخذوا منها قسراً .
بطريق السرقة . ما ساعدهم على نيل أمنيتهم وإدراك مرامهم . فانتحينا جانباً
فى حديقة خربة لم يبق منها غير سور متهدم يحيط ببعض أشجار متفرقة هنا
وهناك . فافترشنا الغبراء . وبسطنا الطعام المؤلف من خبز وسمك مشوى
وطعمية وحلاوى طحينية على سباط من ورق الموز وأكلنا هنيئاً وشربنا
من حفر فى أرض الجنية ملاءى بماء المطر . ثم خلعوا على من ثيابهم ما كسافى
بعض الشئ . وستر من عورتى وتمددنا على الارض ونمنا نوماً هادئاً حتى الاصيل
ولما أفقنا جلسنا حلقة تتسامر وقد سرى عنى ما كان فى فاقبلت بكلى
عليهم وأنا ممتن لهم مغبوط بصحبتهم . فعرضوا على مفارقة العجوز الى تسومنى
العذاب الالىم والانضمام الى زمرة ففهم يشتغلون لحساب شخص وان لم يكن
أقل شراسة وأخف جشعاً من تلك لكنه أخف وطأة منها ، فكل منهم يدفع اليه
جعلاً معيناً يتقاضاه الرجل مساء عند أوبتهم لكنهم عصبية الآن فاذا سولت له
نفسه الشريرة أن يرهقهم من أمرهم عسراً كما كان يفعل ليكون ذلك وبالاً سريعاً

عليه . لانهم ارتبطوا بروابط الاتفاق مع إحداث على منطهم لكنهم أكبر منهم
 سناً قد تحرروا من ربة محتكرهم وأصبحوا يستغلون مواهبهم لانفسهم وهم
 ذوو سطوة وبأس في عالم الاجرام فاذا ما انضمت اليهم رفه حالى ونعم بالى
 فوقع كلامهم من نفسى ، واجبتهم الى ما يريدون وأنا جذل فرح وعشت
 معهم مقاسماً إياهم ضراءهم اذ لم يك لهم سراء . لان تبدل المعيشة لم يبدل البؤس
 بل خفف من حدته . فالرجل كان جباراً عاتياً يبادرنا بالشر لاقل سبب لكنه
 لم يكن فى شراسة العجوز وقد كنا جمعاً . والظلم اذا عم سهل احتماله .

مكثت على ذلك شهراً حتى اذا كنت سائراً ذات ليلة استندى الا كف .
 وقد جمعت فى يومى عشرين قرشاً أبصرت فى العجوز فانقضت على انقضاء
 الباشق على العصفور وأمسكت بذراعى وأمعت فى ضرباً وهى تصيح وتولول
 فتكأ كأعلينا الناس . فاخبرتهم بانى ابنها وقد كرهت المقام عندها رغماً من
 عنايتها فى وعملها على تقويم اعوجاجى وهربت منذ زمن وهى تجد فى طلي
 حتى عثرت على الآن . ثم أهوت بيدها الى جيبي فوقعت على الريال قدسته
 فى عبا وجرتى من ذراعى وهى توسعنى لكما وأنا لا أجرؤ على المانعة حتى
 وصلنا الى غرفتها فطرحتنى أرضاً وقبضت على عصا صالحة : الحمد لله الذى
 مكنتى منك . وما برحت تضربنى حتى فقدت صوابى

ولما أفقت من غشيتى كان الظلام حالكا فى الغرفة فحاولت اختراق
 حجبته بىصرى لارى مكان العجوز فلم أستطع غير أنى سمعت غطيلاً متسقاً
 فايقت بانها نائمة وعزمت على الهرب وكانت الغرفة مبنية بالطين ومسقوفة
 بالقش وبابها لا قفل له ولا يعلق باحكام وهى بعيدة عن العمران فاذا ما خرجت
 منها وركضت لا يمكن للعجوز اللحاق بى ولا الاستنجاد بالجيران ، فسرت على
 أطراف أصابعى محاذرا الاتيان بحركة حتى اقتربت من الباب فالفيت العجوز
 مضطجعة على عتبة لتحول بينى وبين الخروج فنكصت على عقبى ولزمت
 مكانى وأنا حائر فى أمرى

وينى أنا أتردد بين الاحجام والاقدام فتح الباب بتؤدة وحذر وبدا من

شعاع قائم صوب الى أنحاء الغرفة كلها حتى وقع على فانتصبت واقفاً وأسرفت الى مصدره متوسماً فيه الفرج فقبضت يد قوية على ذراعي وسحبني خارجاً فانقدت اليها متخطياً العجوز فاستفاقت وحاولت الصراخ وطلب النجدة فانقض عليها شخصان وكما فيها وطرحاها على الارض وهي تتخبط لتتخلص من قبضتهما . فتركتهما ثانياً عطفي عنها دون أن يصفوا لها قلبي لما سامتني من الذل والجور . وأسرفت الخطي بمسكا بيد قائدي الذي شرع يطمئني فعرفت فيه أحد الرفاق الكبار الذين يتولون الصغار منا برعايتهم لميطوا عنهم أذى مستغلبهم .

وللحال لحق بنا الاثنان اللذان صرعا العجوز وقالوا بصوت أجش أنها لن تزجني فيما بعد . فدب الرعب في قلبي لاني فهمت من لهجتكما أنهما قضيا عليها غير أن الشفقة لم تأخذني عليها لما عالجته من البؤس والشقاء على يديها .

سرت مع الرفاق الكبار الذين نالهم التعسر وحلت بهم نوازل المكروه بمقدار ما بلغت الى . لكنهم لما اشتد ساعدتهم التمسوا ما يصلحون به حالهم دون أن يعزب عن فكرهم أشباههم الاطفال الذين يعانون كل ضروب العذابات والآلام . وحللت بدارهم حيث الفيت عدة أطفال في سنى وما فوقه فاخبرني أحدهم بأنه رأى عند ما قادتني العجوز فتقل أمرى الى أولئك فاغاثوني فعدت عندهم الى سيري الأولى . فكنت أجمع أعقاب السجائر واييها واستجدي واسرق ما تصل اليه يدي . حتى اذا دجى الليل وعدت الى مأوى در بوني وسائر الاطفال على نشل حافظات النقود من الجيوب . فاذا أعيانا أمر انسان واستعصت علينا سرقة حافظته عمدنا الى شق جيبيه بمشط واستولينا على ما فيه .

وهذه الطريقة كانت في بدء أمرها من أشقشئ عندي . فكانوا يملأون طستاء ماء وينشرون على سطحه ورقة طافية ويطلبون مناقطعها بمضغ دون أن تنطس أو يبتل ظاهرها . فدأبت في ذلك حتى قتلتها مراساً ومعالجة . ولم يمض على ربح من الزمن حتى برعت فيه وبرزت سائر الاطفال .

كلفت بمهنة اللصوصية . وأولعت بالنشل لانه ينيلني ما أصبو اليه من

الاضرار بالناس والانتقام من الانسانية التي بادأتني بالشر حالما تفتقت عيني
لنور الحياة . وما برحت تناصبي العدا . وتصليني حرباً شعواء . حتى تأصلت
راهيتها في نفسي فاصبح لا يلذلي غير مد يد الاذي الى الغير تشفياً وانتقاماً .
وما زلت على هذه الحالة . أنا كلما ازدادني الزمن ازداد خبرة و دراية
في فن السرقة وأساليب النشل . فلم أترك مجهوداً الا بذلته . ولا وسعاً الا
استفرغته حتى صرت من أكثر اللصوص . وأوسعهم حيلة . وأشدهم جرأة .
ولكن ذلك لم يكن ليظني . جرة غلي وحقدي . لان تخفيف عبء الجيوب
من المال مهما كثر لا يبهظ العواقب . ولا يصيب الانسان في صميم . مشاعره
فصح عزمي على مبادرته بالسوء في جسمه . فلجأت الى القتل وسفك الدماء .
فكنت أقفك بالناس وأنا ثابت الجنان . دون أن يختلج قلبي بعاطفة حنان . بل
كنت أقبل على ذلك بلذة . مستطياً حشرة الغير ونزعهم . منتشياً من منظر
دمائهم السائلة التي كانت تنزل على فؤادي برداً وسلاماً . حتى كنت أقتل لسبب
تافه أو لغير سبب . فاذا ما اشتدت وطأني على مكان وضج أهله بالشكوى
مما نزل بهم رحلت الى غيره . حتى أثقل أمرى الحكومة وعجزت عن ايقافي عند
حدي . ومنع اذاي وضري . لاني كنت أقفك من الهواء لأعاق في جبالها
مهما أحكمت حبكها .

وقد نزلت بموضع ضاق سكانه ذرعاً بمنكراتي فتشاوروا فيما بينهم على
الايقاع بي . فدريت بذلك وعزمت على الاقتصاص من المحرضين . فقصدت
شطر عمدة البلد وهو الرئيس المدير للخديعة بي والمكر . وكان جالسا على باب
داره في جمع من رجاله والمتزلفين اليه . فاقتربت منه بقدم ثابتة . فأوجس خيفة
مني . لكنني لم أمهل له ليحتاط لنفسه . بل عاجلته برصاص مسدسي فخر صريعاً
فولى اتباعه يستطيرهم الخوف حتى لم يبق منهم احد . واقبل ابنا العمدة من
الداخل على صوت الرصاص فاردتها بيندقي قبل ان يصرلا . واسرعت الى
الجثث الثلاث فمثلت بها اشنع تمثيل تشفياً لما لحقني من اذى الانسان . ثم عدت

ادراجي سائرا الهو يناكافي لم آت شيئا إذا . دون ان يجرأ احد على الاثراب
منى او اللحاق بي .

و يتبادر الى ذهن الناس ان القتلة لاضمير لهم يبكثهم على آثامهم . لكن
هذا خطأ يذهب اليه من ياخذ الامور على علامتها . فكنت اذا ما خلوت الى
نفسى شعرت بضميرى الغافى يستيقظ من سباته . ويحجر بتالمه من منكراتى
وموبقاتى . فكنت ابين له ما حاق بى من الظلم منذ نشأتى حتى وقى هذا . مبرا
فعالى . مجبذا اعمالى . فكان يتملل قليلا ثم يعود الى غفوته .

ولواتح لى من يعتنى بى فى صغرى . انا وسائر الخارجين على الانسانية
ويرينا على قويم المبادئ . وحيد الخصال لكننا ايادي عاملة فى صرح الاجتماع
لا ايادى مخربة . ولكن شاءت الاقدار ان تكون حياتى سلسلة شقاء تبتدى
من مهدى وتنتهى فى لحدى .

وما زلت انتقل من جريمة الى اخرى . ومن اثم الى غيره . دون ان ترتوى
نفسى من الدماء المراقبة . بل كانت تتوق دائما الى التمادى فى غيى والاصرار فى
ضلالى . حتى سطوت ذات ليلة على منزل لا بقصد السرقة . بل طلبا للقتل .
ففتكت بسكانه الستة . فقبض على فاقرت بفعلتى واطلعت المحققين على ماجنيته
فى حياتى وطلبت من القضاة التعجيل بالحكم على لا تخلص من دنيا لم تدر لى
غير التعاسة والشقاء .

هذا هو تاريخ حياتى المقعم على قصره بالحوادث الجسام .. ان مروعاته
ليست وقفا على وحدى . بل هى نفس ما يصيب كلا من هؤلاء الصبيان الذين
ابصرناهم حول صندوق النفايات . والذين يملأون الازقة والطرقات . ان قلب
يتقطع حسرة عليهم لما ينجؤه لهم الزمن من الرزايا والخطوب .. فظالما يوجد
آباء لا قلوب لهم وامهات قد تجردن من كل عطف وحنان . وحكومة لا تبالى بمن
نبذتهم الانسانية من شعبها فسيبقى هؤلاء الصبية مصدر شر ووبال على سواهم
وعلى انفسهم . فيقاسون فى حياتهم من العذابات والآلام مالا يحتمله قلب بشر
دون أن يجدوا من يكفكف لهم دموعه . او يخفف لهم لوعة .

جورجى نيقولاوس